إشكالية المعايير الأخلاقية بين المذاهب الفكرية دراسة نقدية

المدرس
إيمان نعيم شعير محسن العفراوي
جامعة البصرة / كلية التربية

الملخص :

تعد مسألة المعايير الأخلاقية من أهم المباحث الفلسفية ذات التأثير المباشر في حركة الإنسان ومصيره سيراً وسلوكاً لما لها من آثار عملية وتربوية في المجتمع ، فمعرفة كون الفعل الأخلاقي داخل تحت أي معيار له اكبر الأثر في نمو المجتمع وتكامل أخلاقه ، وقد تعددت هذه المعايير التي تفسر الفعل الأخلاقي للإنسان وتمييزه عن سائر الأفعال الأخرى وذلك بسبب تعدد المذاهب الفكرية مما أثار بعضاً من الإشكالات حول المفسر الصحيح لمثل هذه الأفعال ، ومع أن هذه المذاهب تضم جانباً من الحقيقة إلا أن الحقيقة كلها تكمن في معيار العبادة ، إذ هو الحل الأمثل لمثل هذه الإشكالات والمفسر الصحيح لهذه الأفعال ، ولأجل الوصول إلى المعرفة الحقة تم إتباع المنهج التحليلي الوصفي للتعرف على مشكلة البحث وتساؤلاتها وفي ضوء النتيجة التي تم التوصل إليها ينبغي استقصاء الإشكالات المثارة بشأن هذه المعايير للرد عليها من قبل طلاب المعرفة حين يواجهون عدة أسئلة مشابهة لهذه الإشكالات وذلك باستخدام المنطق كوسيلة للتقييم السليم ، كما ينبغي على القائمين على التربية والتعليم بإعادة النظر في تنشئة الأبناء بما يتفق والمعايير الدينية والأخلاقية المستندة إلى القوانين الإلهية وجعلها المصدر الأساسي لحياة اجتماعية سليمة .

The ethics criteria between ldeologes (criticism research)

EMAN-AL AFRAWY
College of Education
Univiresity of basrah

Summary research

The problem of ethics criteria is one of the philosophic themes important. That influence with human movement directly.and his desting conduct and behavior whence process and education in society the ethical action under side any criteriov which have big result in development of society and completeness his moral. There are many of criteria which have explan to the ethical action for hum because of many ldeologes which made over look some of problems about the perfect explaner for this is actions. Althou this is ldeologes contain part from reality but all reality under wor ship criterion so that reaching to the right knowledge with in program analytic descriptive to know of the research problem. Through the result which had top complete reach to it ought to be problems investigation abaut this is criteria for answer toit by knowledge students when faced them many of similar auestions for this problems . through logic using as mean for perfect assess me so ought to teachers . in education and teaching field to review children bringing accord with criteria religio and ethics to legal of law and then to make it source basic for good social life.

المبحث الأول

التعريف بالبحث

مشكلة البحث :

في الوقت الذي ينظر إلى المعايير الأخلاقية في عالمنا المعاصر بوصفها إحدى أهم الوسائل التي تتم من خلالها السيطرة على المجتمعات والحفاظ عليها من الفوضى والتفكك والانحراف تحدث أحياناً في مراحل التغير السريع أن تتعرض معايير الأفراد والجماعات للاختلال بحيث تغلب عليهم الأنانية والحرص على اللذات والمصالح الذاتية مما يؤدي إلى سيادة المعايير المادية على حساب القيم الأخلاقية ، فكلما تنافرت القيم والمعايير وتعارضت ، ضاعت مصلحة الأفراد واضطربت المجتمعات ذلك أن أساس التقدم الاجتماعي هو الانسجام بين الفرد والمجتمع ذلك الانسجام الذي يعتبر من المعايير الهامة بالنسبة للتوازن الاجتماعي ، ونظراً للتغير الاجتماعي السريع ، كان لابد أن ندرك عن وعي وبصيرة مخاطر التيارات الثقافية الوافدة والقيم والاتجاهات المتنوعة ، لاسيما وان عالمنا اليوم يموج بتيارات متباينة من المذاهب الفكرية المختلفة وان مجتمعنا يحكم ظروفه واتصالاته لا يعيش بمعزل عن هذه التغيرات وهو معرض لأن تنتقل إليه بعض العناصر الغريبة من الثقافات الأخرى ، إذ تبرز خطورة هذا الوضع حين يميل بعض أفراد المجتمع إلى تبني المعايير الأخلاقية الوافدة والتضحية بمعاييرهم الأصلية خصوصاً وان هذه المذاهب تؤكد على النزعة الفردية أكثر مما تؤكد على النزعة الغيرية – وهي بذلك – تعكس جوانب ذاتية في شخصية المنظرين أنفسهم وفي بيئاتهم التي عاشوا فيها والتي حكمتهم بمعاييرها ومحكاتها المختلفة التي تؤكد على النزعة للتملك والمكاسب المادية – أياً كانت الطريقة المتبعة في ذلك – وفي ضوء مقولة (الغاية تبرر الوسيلة) ، ثم أن مراجعة يسيرة للأسس التربوية السائدة في معظم دولنا العربية والإسلامية تبين ميلنا إلى التقليد ومحاكاة المجتمعات الأخرى الأكثر سيطرة على العالم متناسين غياب المعايير الأخلاقية فيها ، وان هذه

الأسس تتفق وطبيعة هذه المجتمعات ولكنها لا تتفق كثيراً مع طبيعة مجتمعاتنا وما يحث عليه ديننا الإسلامي في التوازن بين الذاتية والغيرية انطلاقاً من مبدأ (لا ضرر ولا ضرار) كما أن السلوك الأخلاقي السائد في الأسرة والمجتمع يلعب دوراً كبيراً في تنمية المعايير الأخلاقية ، فقيام الفرد بسلوك يتفق مع معاييره ومعايير الجماعة يشعره بالسعادة والرضا في حين أن قيامه بسلوك لا يتفق مع المعايير التي تربى عليها يشعره بالقلق والإحباط وهذا حال كثير من الجانحين ومرتكبي الجرائم إذ لديهم أنا أعلى جيد في محتواه يساعدهم على تمييز الخير من الشر ولكنه لا يقوم بوظيفته في منعهم من إتيان السلوك المنحرف ، وبالمقابل ، فان عدم اعتماد الجانب الديني كمصدر للمعايير الأخلاقية يعطي انطباعاً بعدم ثبات القيم والأخلاق وتغايرها من مجتمع إلى آخر ، مما يدلل على أن هذه المعايير تبدو ذاتية وترتبط بمصالح شخصية ولكن – وان سلمنا بان مصدر هذه المعايير الأمثل هو الدين – هل نسلم بأننا كمجتمع عربي إسلامي نعتمد هذا المصدر أم إننا تركناه إلى مصادر أخرى ؟

الواقع ، إننا نعتمد هذا المصدر في تنشئتنا لأبنائنا فنحن نتردد بين الانقياد للدين وبين تقليد المعايير الأخلاقية الأجنبية عنا ، مما يجعلنا في حالة صراع واضطراب غير واضحين تقودنا في اتجاه غير محدد والسبب هو : عدم تغليب المعيار الديني في مجتمعنا واعتماده كنظام أخلاقي وسلوكي إلى الدرجة التي أصبح فيها الالتزام ببعض المبادئ الأخلاقية والدينية قيد لا بد من كسره ، أو تخلفاً لا بد من تجاوزه حتى نوصم بالتقدمية والمدنية !! وأياً كان الأمر علينا أن ندرك أن علماء المذاهب الفكرية المنقطعة عن الإسلام – بمختلف تياراتهم – لا يملكون المعيار الصحيح لتفسير الأفعال الأخلاقية في مجتمعاتهم ، وهذا ما يدعونا إلى التساؤل عن السر الكامن وراء هذا العجز عن رؤية البديل ، وطبيعياً عندما يعجز هؤلاء عن رؤية البديل ، حينئذ لا بد أن يتحدد السر بوضوح ، حينما نكتشف بان عزلة هؤلاء عن السماء ومعاييرها الأخلاقية تقف وراء هذا السر ، وان كان

هؤلاء قد عجزوا عن تقديم المعيار الصحيح للأفعال الأخلاقية للإنسان ، فهل يعني هذا عجز الباحث الإسلامي عن الإتيان بذلك المعيار ؟

انه درس مهم للإنسانية لما له من آثار سلوكية وتربوية ، لا بد من طرحه على طاولة البحث التربوي وإلا فلا يستطيع رواد المعرفة وعشاق الحقيقة استلهامه والتزود منه .

أهمية البحث

تعد مسألة المعايير الأخلاقية من أهم المباحث الفلسفية ذات التأثير المباشر في حركة الإنسان ومصيره سيراً وسلوكاً ، لما لها من آثار عملية وتربوية في المجتمع ، فمعرفة كون الفعل الأخلاقي من أية مقولة أو انه داخل تحت أي معيار له اكبر الأثر في نمو المجتمع وتكامل أخلاقه ، والحق : إن معرفة الأفعال الأخلاقية تعد من اعقد المشكلات الفلسفية التي يواجهها الإنسان في حياته ، فمنذ آلاف السنين الماضية ولحد الآن لم تتفق المذاهب الفكرية في العالم على ذلك ، إذ تعددت وجهات النظر حول الموضوع بتعدد الباحثين فيه ، فالبعض يوصف الأفعال الإنسانية بأنها أفعال أخلاقية وذلك في مقابل الأفعال الطبيعية : بمعنى أن الفعل الأخلاقي قابل للثناء والتقديس ويتميز بقيمة تفوق القيم المادية ، فالعفو والتسامح مثلاً ما هي إلا نماذج لبعض الأفعال الأخلاقية التي لا يمكن قياسها بالمعايير المادية ، والبعض الآخر ينظر لها بمنظار القوة الاقتصادية مع ان هذه الرؤية البعيدة عن إطار القيم الأخلاقية الرفيعة قد تصبح مصدراً للإفساد في الأرض ، وهناك من يعد السر في كون الأفعال الأخلاقية كامناً في العواطف وآخر من يجعل الفعل قائم على أساس الإرادة والعقل . لا بل أن هناك من يرى ان الفعل الأخلاقي كامناً في الوجدان وغيره من يعتقد بان الأخلاق هي من مقولة الجمال ، ويتضح من هذا أن أصحاب هذه المذاهب وأمثالهم بعيدون كل البعد عن ابسط المعارف الإلهية الحقة ، ذلك بسبب عدم تعرفهم على المعارف الإسلامية فقد انحصرت معرفتهم الدينية في إطار العالم المسيحي ، كما أن خطأ الإنسان في فهم

الخلق وفي معرفة كيفية الخلق وبسبب دخول بعض النظريات الفلسفية القديمة في الثقافة البشرية فان الكثير من الناس ذهبوا إلى مذاهب بعيدة عن الحقيقة ، ولا شك أن كل واحدة من هذه الرؤى تضم جانباً من الحقيقة أما الحقيقة كلها فهي أن الأخلاق من مقولة العبادة فالإنسان بمقدار ما يكون عابداً لله بصورة غير واعية فانه يكون متبعاً لمجموعة من الأوامر الإلهية بصورة غير واعية أيضا وعندئذ تصبح جميع أفعاله أخلاقية وذلك تجل خاص للروح البشرية كما أن اعتماد الدين كمصدر للمعايير الأخلاقية يعطي انطباعاً بثبات القيم وعدم تغيرها من مجتمع لآخر ، فهي لا ترتبط بمصالح ذاتية وهذا ما يؤكد استمرار الأخذ بالمعايير الأخلاقية التي أوكلتها السماء إلى الإنسان فهي التي تحقق توازن المجتمعات عبادياً ودنيوياً على العكس من المعايير الأرضية المنعزلة عن السماء والتي كانت عزلتها سبباً للازمات التي تعصف بها ، وعلى الرغم من تعدد المعايير واختلافها من مجتمع لآخر – وان كان هناك اتفاق في بعض العموميات – لكن المهم أن المجتمعات جميعها لها معاييرها الخاصة التي تسعى إلى غرسها في نفوس أجيالها لكونها عنصر أساس في بناء الشخصية الإنسانية الناضجة وفي تحقيق التوازن والارتقاء الاجتماعي ، كما أن الانسجام بين الفرد والمجتمع يستلزم نوعاً من التوافق في المعايير الأخلاقية لان أي تعارض فيها سيؤدي إلى ضياع الحقوق وبالتالي انتشار الجرائم والفوضى وفقدان الأمن الاجتماعي ، وفي المقابل فان الإشكالات التي تثار في النفس تجاه المعايير الأخلاقية تولد في القلب الشكوك وتثير ضباب الجهل على صورة هذه المعايير ، فالمذاهب الفكرية المنقطعة عن الإسلام يقوم كل واحد منها بتفسير الفعل الأخلاقي بنحو من الأنحاء ، وهنا نسأل – عن مصدر الأخلاق المثلى لنأخذ منه المعايير الخلقية اللازم غرسها في نفوس الناس : هل نأخذه من البيئة وما يضعه المنظرون أم نأخذه من الدين ؟ وهل تنسجم الأفعال الأخلاقية مع الفلسفات المادية للمنظرين ؟ فتغير الكثير من الأفعال الأخلاقية عبر الزمان يؤكد أن الاعتماد فقط على المنظرين دون الأساس الديني لا يفي بالأغراض المرجوة من وضع المعايير الأخلاقية لضبط سلوك الفرد والجماعة

لان التغيير المستمر للمعايير يعطي انطباعًا بعدم ثبات الأخلاق وعدم مصداقيتها كما يعطي انطباعاً بتدخل العوامل الذاتية والمكاسب الشخصية للمنظرين والقائمين على اتخاذ القرارات بشأن الأفراد والمجتمع بغض النظر عن الآثار المترتبة على ذلك .

وما انتشار الجرائم والسرقات والقتل وفقدان الأمن إلا دليلاً على غياب المعيار الديني وتعطيل القانون السماوي ، لان المعايير المستمدة من الدين تنظم سلوك الإنسان وتجعل في شخصيته ضميراً حياً يهديه إلى الصراط المستقيم (٥ ، ص٣٧٤) ، وعليه : فهل بعد هذا يظن البعض إن معرفة " المعايير الأخلاقية " أمر لا يحتاج إلى دراسة علمية مقصودة ؟

من هنا ينبغي أن نورد جملة من المعارف المستفادة من البحث الحالي :

١. محاولة السعي إلى استقصاء الشبهات والإشكالات المثارة – قديماً وحديثاً – فيما يرتبط ببعض المعايير الأخلاقية التي تظهرها هذه الإشكالات ، وكذلك الاهتمام بالرؤى والأفكار التي أفرزتها إشاعة قيم الحضارة الغربية المادية ، المقنعة بأقنعة المنهج العلمي وذلك من خلال تقديم الإجابة المناسبة لروح العصر والانفتاح الفكري .
٢. ضرورة سعي طلاب المعرفة من المثقفين والمبلغين للحصول على المعرفة الحقة حين يواجهون عدة أسئلة مشابهة في أصولها لهذه الإشكالات التي يجيب عنها هذا البحث والتي لم تمنحها المكتبة التربوية العربية حظها من الدراسة والبحث .
٣. التحلي بنظرة فلسفية عميقة تحصن الإنسان من مختلف أشكال الرؤى والأفكار المضللة .
٤. المساعدة في ضبط سلوك الفرد والجماعة بما يحقق التماسك والانسجام الاجتماعي حاضراً ومستقبلاً .
٥. مساعدة القائمين على التربية والتعليم في عملية التوجيه والإرشاد بما يتفق والمعاييرالدينية والأخلاقية التي تتفق والطبيعة البشرية وما فطرت عليه .

وبالمقابل ، فان البحث يعد محاولة لسد فراغاً في مجال الدراسات التربوية التي تكون قد اصطبغت بصبغة الاضطراب والتساؤلات بالنسبة لجيل الشباب ، ولكن يبقى السؤال مفتاح المعرفة ، والاضطراب معبر إلى الطمأنينة .

أهداف البحث

يهدف البحث الحالي إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية :

١. ما الفرق بين الأفعال الأخلاقية للإنسان وسائر الأفعال الأخرى ؟
٢. بأي معيار يمكن تفسير الأفعال الأخلاقية ؟ وهل المذاهب الفكرية قادرة على تفسير مثل هذه الأفعال ؟ وما الإشكالات المثارة بشان هذه الأفعال ؟
٣. ما هو منهج حل الإشكالات المثارة بشان هذه الأفعال ؟

ما هية المعايير الأخلاقية

تشير المعايير الأخلاقية إلى تعلم المقبول وغير المقبول في المجتمع والى الأوامر والنواهي ، وقد يبدأ تعلمها في مرحلة الطفولة حينما يكتسب الطفل الضمير الأخلاقي الذي تحلى به الوالدين ومعاييرهم في الحكم على الصواب والخطأ ، إذ أن الرغبة في المدح والتقبل من الدوافع التي تعمل على تعلم هذه المعايير(٣،ص١٦١) ، أي أن اكتساب الضمير (الأنا العليا) خطوة هامة في نشأة المعايير الخلقية (٤ ، ص٣٥٠) ، لذا فهي عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني المتجه نحو غاية معينة تهدف إلى تحقيق مطالب جسدية أو نفسية أو فكرية أو اجتماعية فهي تدخل في تكوين شخصية الفرد وتصبح جزءاً لا يتجزأ منه (٢٢ ، ص٥٦) ، وعليه : فان الحكم الخلقي هو السلوك الذي يتفق مع قيم الجماعة وتقاليدها بينما المفاهيم الخلقية فهي حضارة معينة والتي تحدد سلوك الأفراد الذين ينتمون إلى ذلك المجتمع ، أي قواعد السلوك التي نجدها عند أفراد مجتمع معين أو أن السلوك الذي يخالف معايير المجتمع ومفاهيمه الخلقية بصورة مقصودة يعد سلوكاً لا أخلاقياً (٩، ص١٥٧) ، لذا تعد المعايير ميزان أو مقياس السلوك الاجتماعي النموذجي أوالمثالي لما هو صحيح وماهو خطأ (٦ ، ص٦٤) ، ونظراً لان الفرد يلعب عدداً من الأدوار الاجتماعية فانه بهذه الأدوار يتعلم المعايير السلوكية المحددة لها من الجماعة .

وهكذا ، فان المعايير الأخلاقية هي التي تفسر كون الفعل أخلاقيا أم فعلاً طبيعياً ، فالأول يكتسب قيمة ثمينة لا يستوعبها العقل البشري ، بينما الثاني يكتسب

لوناً من القيم المادية لأنه استجابة لغرائز مادية لا علاقة لهـا بميـزان الأخـلاق إيجابا أو سلباً ، وإننا مهما رفعنا من مستوى المعيار فإننا لا نستطيع أن نقيس القيم الأخلاقية بالمعايير المادية فكل سلوك خلقي يكون نابعاً من صفة نفسية قابلة للمدح أو الذم كالإنفاق في وجوه الخير أو الإقدام دفاعاً عن الحق فإنها صـفات حميـدة لأنها من فضائل الأخلاق وآثارها تابعة لها في الحكم والناس بفطرتهم يميلون إلى ممارستها ويشعرون بالراحة التامة لها ، لكنهم ينفرون بفطـرتهم مـن الصـفات الخلقية الشاذة ، من هنا ، ينبغي على الإنسان أن يسعى جهده لصياغة شخصـيته وفق معايير الهدى وقيم الحق وليس وفق زخارف الدنيا (١٨ ، ص[١٣]) ، ونظراً لأهمية المعايير الخلقية في نظر المذاهب الفكرية – إذ إن فقدانها يؤدي إلى تفكيك المجتمع وتلاشي معاني الإنسانية – فقد تعددت هذه المعايير تبعاً لتعـدد وجهـات النظر المختلفة فالبعض اعتمد معيار الإرادة وآخرون اعتمدوا معـايير الوجـدان والعاطفة والجمال والتكامل الاجتماعي ، ومع أن هذه المعايير لا تنفع مع بعـض الناس ، لذا كان لابد من وازع أعظم في نفوسهم وهو وازع العبادة ، لكونه المعيار الوحيد المفسر للأخلاق والذي يدل على الخير ويصلح لجميع الناس ويقوم أساساً على عناصر ثابتة مرنة قادرة على استيعاب تغيرات الحياة ولارتباطـه بالطبيعـة البشرية وما فطرت عليه قال تعالى : ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّـا لِيَعْبُـدُونِ)) [الذاريات / ٥٦] ، وعليه : فان المعايير الأخلاقية ضرورة اجتماعية وتربويـة في تفسير الأفعال الأخلاقية للإنسان وعلى الإنسان أن يسأل نفسه هل أن معـاييره الأخلاقية الآنية طاهرة أم ملوثة بآثار التربية الفاسدة والشهوات الآنية ؟

من هنا ، ينبغي أن ندرك الآتي :

١. إنقاذاً للمجتمع من ظاهرة التفكك لابد من إعادة النظر في تنشئة أبنائنا وفق المعايير الأخلاقية المستندة إلى القوانين الإلهية وليسـت علـى القـوانين الوضعية دون أن يساء فهم وتفسير الآيات القرآنية بحسـب أهوائنـا وإلا سنكون قد اعتمدنا المعايير الوضعية ولكن بثوب الهي .

٢. واقعية المعايير الأخلاقية : أي يجب أن تستلهم من الواقع الراهن شريطة أن تكون القيم الدينية هي المحتوى الحقيقي .
٣. استخدام المنطق كوسيلة للتقييم السليم إذ إن من دونه لا يمكن استثمار العقل وتربية الفكر .
٤. جعل المعيار العبادي مصدراً وأساساً لحياة اجتماعية سليمة حيث يكتشف به المؤمن الانحراف القيمي المعاصر والمفاهيم الانتقائية المستوحاة من الفلسفات القديمة والثقافات الأوربية الحديثة .

من كل ما سبق نستطيع أن نحدد مفهوم المعايير الأخلاقية بأسلوب إجرائي على انه : **قواعد الفعل الأخلاقي المقبول وغير المقبول في المجتمع والذي يمثل عنصراً هاماً في كيان شخصية الفرد ، وأحد المحددات الهامة لضبط السلوك الاجتماعي وتوجيهه بعيداً عن المكاسب السريعة ، مما يؤكد ضرورة استمرار الأخذ بالمعايير الأخلاقية الواردة من الدين الإسلامي الحنيف .**

منهجية البحث

لأجل الوصول إلى المعرفة الحقة في خضم الأمواج المتلاطمة من الإشكالات والتساؤلات المثارة – قديماً وحديثاً – لابد من إتباع منهجية علمية يستطيع أي باحث آخر من إعادة البحث وفقها ، وتحقيقاً لأهداف البحث الحالي تم إتباع المنهج التحليلي الوصفي للإجابة عن تساؤلات البحث على وفق الإجراءات الآتية :

١. عرض المعايير الأخلاقية ومناقشتها وربطها بالأمثلة الموضحة لها اعتماداً على النصوص الشرعية والبراهين العقلية بعيداً عن السقوط في شباك الرؤى والأفكار التي أفرزتها قيم الحضارة المادية ليتم نقلها من هذه الدائرة إلى دائرة الثقافة الإسلامية العامة انسجاماً مع روح العصر وانفتاحه الفكري.
٢. نقد وتحليل الإشكالات المثارة بشأن هذه المعايير .
٣. تقديم الحل الأمثل والمفسر الصحيح لمثل هذه الإشكالات فيما يتعلق بالمعايير .

((المبحث الثاني))

الفرق بين الأفعال الأخلاقية للإنسان والأفعال الأخرى

اختلف الفلاسفة الغربيون في تفسير معنى الأخلاق منذ آلاف السنين الماضية وحتى الوقت الراهن ، ذلك بسبب اختلاف نظرتهم إلى المفهوم والى القناعات العلمية التي تكونت لديهم ، ومهما يكن الاختلاف في وجهات النظر ، فان مسألة الأخلاق تعد من اشد المسائل الفكرية والفلسفية التي يواجهها الانسان تعقيداً ، وقبل أن نبحث في حقيقة مفهوم الأخلاق لابد من توضيح موارد الفعل الأخلاقي ، فان لم يتضح المفهوم الأصلي والدقيق للفعل الأخلاقي فان بحثنا سيكون عقيماً ولا نأمن فيه من الوقوع في الخلط والاشتباه ، لذا لابد من الحصول على إجابة واضحة بشأن السؤال الآتي : ما الفرق بين الأفعال الأخلاقية للإنسان وسائر الأفعال الأخرى ؟

من الواضح أن بعض الأفعال الإنسانية توصف بأنها ((أفعال أخلاقية)) وذلك في مقابل الأفعال المادية والطبيعية ، والفرق بين الفعل الأخلاقي وسائر الأفعال الأخرى هو : أن الفعل الأخلاقي قابل للثناء والمدح ويضفي الناس قيمة على مثل هذا الفعل لكن هذه القيمة ليست من نوع القيم المادية وإنما قيمة معنوية وأخلاقية رفيعة لا يستوعبها العقل البشري ولا يمكن قياسها بالمعايير المادية ، وهنا لنا أن نسأل : ما هو الشيء الذي إذا تحقق في فعل ما قلنا انه فعل أخلاقي ؟ وما هي الميزة التي إذا وجدت في فعل ما جعلته فعلا طبيعياً وعادياً ؟

في الواقع ، نحن ندرك إن الأفعال التي تفوق الفعل الطبيعي تسمى بالأفعال الإنسانية كما أن جميع أنواع الخدمات التي يقوم بها الإنسان لأفراد نوعه من دون أن يتوقع في مقابلها شيئاً – وإنما يقوم بها بقصد الإحسان إلى الآخرين – فان كلها تعد أفعالاً أخلاقية ، ونحن نقول ، مثلا : إن تضحية الإنسان بذاته من اجل بقاء المجتمع وإنصاف الآخرين بالاعتراف بان الحق معهم وليس معه ، والالتزام بالعدل وعدم الاعتداء على الآخرين وحرمان الذات لتحقيق الرفاه

الاجتماعي والوفاء والعفو والتسامح والرفق بالحيوان من جملة الاتجاهات المعنوية عند الإنسان وهي في اغلب الأحيان لا تنسجم مع المصالح المادية لكنهـا خدمـة للمجتمع الإنساني الذي يتكون من مجموعة أفراد تتميز بصفات معينـة ، ولـيس للمجتمع وجود حقيقي مستقل عنهم ، والأسئلة التي تطرح هنا هي : لماذا الجنـدي مثلاً ، يضحي بروحه من اجل الآخرين ؟ هل يضحي بلا هدف ولا نتيجة ؟ ومن اين جاءت هذه التضحية ؟ وما هو منبعها ؟

في الواقع ، إن للإنسان مجموعة من الرغبات في هذا العالم لا تتلائم مع الناحية المادية في وجوده ، وهذا دليل على وجود عالم آخر ، ينال فيه جزائه وهو عالم الاتجاهات المعنوية التي تدفع بالفرد إلى الرغبة في عمل الخير ، وان هـذه الاتجاهات كانت ولا تزال موجودة عند الإنسان وغير قابلة للمقاومـة ولا يحـل غيرها محلها ، لذا ، لابد من أن يكون وراء عمل هذا الجندي قيمة معنوية رفيعة ،وعندئذ يصبح هذا العمل لوناً من ألوان التضحية والإيثار وهذا يعد فعلاً أخلاقيـاً حكيماً وان دل على شيء فإنما يدل على أن أمثال هؤلاء يتمتعون بأساس محكـم لأخلاقهم بحيث لا تستطيع اعتى القوى المنحرفة أن تسلبها منهم بعكس أولئك الذين يفتقرون لأي التزام بالأسس الأخلاقية ، إذ لا معنى للإنسانية ولأي شيء معنـوي إذا لم يرتبط برأس المعنويات ومنبعها .

ومن هذا المنطلق ، احتلت الأخلاق المرتبة الأولى في بنـاء الشخصـية الإنسانية ، إذ إن الفعل الأخلاقي يكتسب قيمته بمقدار ما تتقيد ذات الإنسـان بـه ويقربه من الأخلاق الإلهية ، ولمن يسأل: كيف نجعل الفعل الأخلاقي ملكه؟ نقول : إن الإنسان يستطيع بتركيز الأعمال الصالحة والمواظبة عليها وترسيخ آثارهـا أن يجعل من العمل الصالح ملكه راسخة عنده فيواظب على الكرم حتى يصبح كريماً ، ويواظب على الرحمة حتى يصبح رحيماً و .... فان هذه الصفات تصبح ملكات راسخة فيه ولا تصدر عنه تكلفاً ، فان الإمام علـي والسـيدة فاطمـة الزهـراء والإمامين الحسن والحسين (عليهم السلام جميعاً) ، حينما جاءهم المسكين واليتيم والأسير وتصدقوا بكل أرغفتهم كان يمكنهم إعطاء حصة فرد منهم لقضاء حاجته

لكنهم ولكون الكرم والإيثار صفة ذاتية لهم لم يكونوا يرون قضاء حاجة هذا السائل واجباً كفائياً ، بل هو واجباً عينياً على كل واحد منهم وقد تجسد ذلك في وصف الفرزدق الشاعر الإمام السجاد (عليه السلام) :

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

(٨ ، ص١٢٧)

وعليه ، أن الفعل الأخلاقي ينبع من الذات ولا يعرف غيره فهو يستطيع أن يقرب الإنسان إلى العالم المعنوي ، لان الفهم المعنوي للحياة والإحساس الخلقي بها هما الركيزتان اللتان يقوم على أساسهما المعيار الأخلاقي الذي يضعه الإسلام للإنسان وهو رضا الله تعالى فهو الذي يقود السفينة البشرية إلى ساحل الحق والعدالة (١٢ ، ص٤٢٣) ، في حين أن الخطر على الإنسانية يكمن في المفاهيم المادية وما ينبثق عنها من معايير وأهداف ، لذا لا يمكن قياس الأفعال الأخلاقية بالمعايير المادية لكونها تعلم الإنسان كيف يربي ذاته ويصوغ شخصيته وهذا هو السر في كون الأفكار والنيات والرغبات والإرادات تعد افعالاً أخلاقية لان لها قيمة رفيعة قابلة لأقصى حد من الثناء والتكريم .

وهكذا يتضح لنا ، أن الفرق بين الفعل الأخلاقي وسائر الأفعال الأخرى هو : أن الفعل الأخلاقي قابل للثناء والمدح والتقديس بحيث لا يمكن تقويمه بالمال ، لان جميع الخدمات التي يقوم بها الإنسان بقصد الإحسان إلى الآخرين ، فإنها تعد افعالاً أخلاقية كامنة في أعماق الإنسان وذلك في مقابل سائر الأفعال الطبيعية الأخرى والتي لا بد من وجودها لأنها الجسور التي تربط بيننا وبين عوالم المادة فهذه لا يستحق عليها الإنسان مدحاً ولا ثناءً .

((المبحث الثالث))

اختلاف المذاهب الفكرية بشأن المعايير الأخلاقية

بعد أن أثبتنا وجود الاختلاف بين الأفعال الأخلاقية والأفعال المادية نواجه الآن هذه التساؤلات : بأي معيار يمكن تفسير مثل هذه الأفعال ؟ وهل المذاهب

الفكرية قادرة على تفسير مثل هذه الأفعال ؟ وأي المذاهب أكثر دقة في التفسير ؟ وما الإشكالات المثارة بشان هذه الأفعال ؟

اختلفت الاتجاهات والمذاهب الفكرية – بصورة عامة – فيما يرتبط بمبحث المعيار أو المقياس الذي يستطيع تفسير الأفعال الأخلاقية للإنسان ، فان لكل مذهب من هذه المذاهب منهجيته الخاصة به ، ولنا نحن أيضاً أصحاب المذهب الإسلامي رأي في ذلك ، وهذا ما سنوضحه بالدراسة والبحث تباعاً .

معايير الفعل الأخلاقي[1] :

هناك مجموعة من المعايير المتعلقة بتفسير الفعل الأخلاقي ، ونعني بها المقاييس التي تبرر السر في كون الأفعال الأخلاقية قابلة للثناء والمدح وذلك في مقابل سائر الأفعال الأخرى ، وما من شك أن الدقة في التفسير تكتسب أهمية كبرى لان قضية التأثر وطبيعته قضية أساسية وتترتب عليها نتائج كثيرة ، وبما أن المعايير متعددة ، فإننا سنقتصر على عرض أهم المعايير المؤثرة في الجانب الأخلاقي من الشخصية ، وهي على النحو الآتي :

أولاً : معيار الجمال :

لا شك أن التربية الجمالية تهدف إلى تهذيب الحس الإنساني لدى الفرد وصولاً إلى صلاح النفس وهدوئها ، كما أن السمات الجمالية الكريمة تبعث في نفس الفرد البهجة والقناعة والمتعة الذاتية في معرفة الخير والحق والعدالة وحب الجمال وممارستهما سلوكاً ومنهجاً في الحياة مما يؤدي إلى تحسين نوعية السلوك العام وترقية أساليب التعامل الإنساني (٢٢ ، ص٢٩-٣٠) ، كذلك فان تقدير الجمال وتذوقه جزءهام في مساعدة الفرد للتوافق النفسي والاجتماعي في الحياة (٦ ، ص٧٦) ، وقد يتخذ من الجمال معياراً لتفسير الفعل الأخلاقي ، ويعد الفيلسوف اليوناني " أفلاطون " من الباحثين الذين اعتمدوا معيار الجمال في مجال الفعل

---

(١) ينظر فلسفة الأخلاق ، مرتضى مطهري ، ص٢١ وما بعدها .

الأخلاقي ، إذ يؤكد على أن الفعل الأخلاقي يتعلق أساسا بالروح الجميلة ، لا أن يكون الفعل في حد ذاته جميل ، ذلك يعني أن الأخلاق أن يعيش الإنسان حالة تصبح فيها روحه جميلة ، وإذا أصبح الفعل جميلاً فذلك يعود إلى الروح وليس الفعل الجميل هو الذي يكسب الروح جمالاً ، بل أن الروح الجميلة هي التي تكسب الفعل الأخلاقي جمالاً ، ويضيف أفلاطون شرطاً آخر وهو أن يكون أساس الفعل الأخلاقي العدل لان العدل مساوياً للجمال وينبغي أن يكون هناك تناسباً وتوازناً وانسجاماً تاماً بين العناصر الروحية للإنسان التي تشمل كل الأفكار والعواطف والقرارات ، فالإنسان مثلاً : عندما يجله الآخرون كامل الإجلال فهو ذلك الإنسان الذي ظفرت روحه بقدر كبير من الجمال ، أي أن هذه النظرية ترى أن الجمال المعنوي ينتهي عند هذا الحد وهو أن روح الإنسان قد خلقت لتدرك الجمال المعنوي الكامن في القيم والفضائل الأخلاقية كالصدق والأمانة والعدل ولعل من يدرك جمال مكارم الأخلاق فانه سوف لن يقدم على الكذب أو الخيانة وان الذين يتلوثون بالكذب والخيانة هو لأنهم لم يدركوا جمال الصدق أو جمال الأمانة وقد أشار أفلاطون إلى إن العدالة : **هي انسجام الأجزاء مع الكل أي انسجام عمل الأفراد مع المجتمع كل حسب استعداده وكلما تم ذلك أصبح المجتمع منسجماً وعادلاً وجميلاً ، وإذا لم يكن عادلاً فهو غير جميل وإذا لم يكن عادلاً ولا جميلاً فهو غير مؤهل للبقاء .**

يتضح مما تقدم ، إن معيار الفعل الأخلاقي عند أفلاطون هو الحس الجمالي ، أي كلما كان الإنسان يعيش في حالة تبدو فيها روحه جميلة فان فعله الأخلاقي يصبح جميلاً ، وان الجمال مساوياً للعدالة والإنسان المتعادل في الأخلاق والقوى والاستعدادات الكامنة فيه هو الإنسان الجميل روحياً ، استناداً إلى هذه المضامين نرى أنفسنا ملزمين بالتوضيح عن بعض الإشكالات الواردة في هذا المعيار ، وعلى النحو الأتي :

نقد إشكالية أفلاطون بالنسبة للجمال

نحن نشكل على أفلاطون في تعريفه للجمال والسبب : يتعذر علينا الوثوق به إن كان جميلاً أم لا ؟ ولو فرضنا صحته فهو تعريف غامض وغير دقيق ، فالجمال في نظره التناسب والتعادل والانسجام بين الأجزاء والكل ، فان كان التناسب هو وجود نسبة خاصة بين الأجزاء ، فهل في مجال الجمال يمكن تحديد هذه النسبة – كما تحدد نسبة الأوكسجين والهيدروجين في تكوين الماء ؟ الجواب بالسلب : لان الجمال يدخل في مجال أوسع من حقائق الوجود التي لا يصح السؤال عن كنهها وما هيتها ، لذا ليس من السهل تعريف الجمال وان كنا لا نشك في وجوده ، وهنا نواجه بعض التساؤلات : هل الجمال حقيقة مطلقة أم نسبية ؟ وهل الشيء الجميل هو جميل في حد ذاته بغض النظر عن وجود إنسان آخر يدركه أم لا يدركه ؟ وإذا كان الجمال الروحي هو معيار الفعل الأخلاقي لدى أفلاطون فما بال ألوان الجمال المنتشرة في جميع المحسوسات ؟ وهل الجمال يقتصر على الجمال المرتبط بالشهوة الجنسية لدى الإنسان ؟ أم هناك ألوان من الجمال المعنوي غير المحسوس ؟ وبغض النظر عن كل هذا هل يتيسر تقديم نظرية للجمال المعقول ؟

للتعامل مع هذه الإشكالات المثارة : نعتقد إن الجمال ليس أمرا مطلقاً ، بمعنى أن إنسانا قد يكون في قمة الجمال عند شخص ، مع أن شخصاً آخر لا يراه جميلاً ، فقصة ليلى ومجنونها الشاعر قيس مثلاً ، شاهدة على النسبية في الجمال ، فهي جميلة بالنسبة إلى مجنونها ، وغير جميلة بالنسبة لغيره – مع إنها امرأة عادية ببشرة سوداء – وهنا يكون العشق هو الذي يخلق الجمال وليس العكس ، كما أن أفعال الإنسان يكون بعضها جميلاً في حد ذاته ويتميز بالجاذبية والعظمة والعشق والثناء ، مثل تضحية الإنسان بنفسه من اجل المجتمع ، وبعضها يكون عادياً لا يحمل على الثناء ، ففي المجال الأخلاقي لا بد من القيام بفعل يدرك الناس من خلاله جمال المكارم الأخلاقية وان لا تبقى أفكارهم مقيدة بجمال المجالات الحسية ، كما أن الجمال لا يقتصر على ألوان الجمال التي تثير الشهوة الجنسية

وإنما هناك ألوان من الجمال المنتشرة في جميع المحسوسات الطبيعية منها جمال الحيوانات والنباتات والسماوات والجبال والبحار .... الخ وهذه ألوان من الجمال المحسوس – تدركه أغلبية الناس إلا أن هناك ألوانا من الجمال المعنوي غير المحسوس منها جمال البلاغة والفصاحة والخيال وما تنجذب إليه الروح بشكل لا إرادي ، أوَ ليس للقرآن الكريم جمالاً وبلاغة وألفاظا تستولي على الحس المعنوي إلى الحد الذي تسيل معه الدموع وتخشع له القلوب ؟! كقوله تعالى : ((وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)) [الإسراء / ١٠٩] ، وعليه ، فان الجمال ليس منحصراً في الجمال المرتبط بالأمور الجنسية وإنما هو منتشر في جميع الموجودات للطبيعة ، لا بل هو متعلق بالجمال الفكري وكل ألوان الجمال المعقول الذي لا يدركه سوى عقل الإنسان وفكره ، ثم علينا أن ندرك أن الجمال حقيقة موجودة في الخارج لا يمكن إنكارها – وليس مخلوقاً للعشق – حتى وان كان أمرا نسبياً ، لذا لابد من تربية الذوق الرفيع – المعنوي والفكري – لدى الإنسان لإدراك جمال الأفعال الأخلاقية وقبح الأفعال الرذيلة كما ان عظمة المحسوسات الكونية تكمن في تنوعها وألوانها وليلها ونهارها وان وجودها وجمالها ضروري لإظهار جمال المحاسن ، ولولا المقارنة بين القبح والجمال لما كان القبح قبيحاً والجمال جميلاً، فلو كان جميع الناس آيات في الجمال كالنبي يوسف الصديق (عليه السلام) لما كان للجمال معنى ، ولو كانوا جميعاً بقبح وجه الجاحظ لما كان في العالم قبح ، ولو كانوا جميعاً ذوي قوة الأبطال كالإمام علي (عليه السلام) لما كان للبطولة معنى .

وعليه ، فان وجودها ضروري للتناسق والتوازن العام .

وهكذا ، يتضح أن معيار الفعل الأخلاقي حسب هذا الاتجاه هو الجمال الروحي وبالتالي فما هو الجمال ؟

انه سؤال لم يجب عليه احد لحد الآن ، بل يرى البعض انه لا جواب له ، لان الجمال يدخل في زمرة ارفع حقائق الوجود التي لا يصح فيها السؤال عن ماهيتها .

ثانياً : معيار الوجدان

الوجدان عبارة عن القوة المدركة في النفس الإنسانية ، وهذه القوة تسمى عند علماء النفس بالوجدان الأخلاقي ، والوجدانيات هي الحقائق التي يدركها الوجدان ، أي انه لم يوجد على اثر الوراثة الاجتماعية أو التعاليم الدينية والتربوية بل هو أمر غريزي ونداء فطري منبعث من باطن الإنسان وجد معه وسيبقى إلى الأبد معه (١٧ ، ص٢٩٤-٢٩٥) ، كما أن وجدان الإنسان وفطرته أقوى دليلاً وأوضح منهجاً في الوصول إلى الحقيقة (١٩ ، ص٥٩) ، فهو يلهم الإنسان ما يجب عليه فعله أو تركه في المجال الأخلاقي ، ويعد الفيلسوف الألماني " كانت " من الذين يؤمنون بهذا الوجدان ، فهو يعتقد أن معيار الفعل الأخلاقي هو الشعور بالتكليف الوجداني بمعنى إن الأخلاق تعني الأوامر الصريحة والحاسمة التي تلهم الإنسان من قبل ضميره الأخلاقي المغروس في أعماقه أي أن بعض الأمور يشعر بها الإنسان في ضميره بصورة تكليف وأمر نهي مثلاً ، حين نقول للإنسان لا تظلم ولا تكذب وكن صادقاً أو أحبّ الآخرين فهذا يعني إن هذه الكلمات موجودة في ضميره بشكل فطري أي أن ضميره هو الذي يأمره بان يفعل كذا ولا يفعل كذا وان كل فعل يقوم به هو بدافع الطاعة لأمر وجدانه دون أن يكون هناك شروط فهو يفعله بأمر من ضميره وقلبه حتى وان كان ليس له أي غاية أو هدف معين .

لذا فهو فعل أخلاقي ، وبتوضيح آخر إن الفعل الأخلاقي لا يكون أخلاقيا إلا إذا اتخذ شكل الطاعة الخالصة للوجدان من دون أن يأخذ بنظر الاعتبار أي قيد أو شرط أو غاية . وإذا سئل شخصاً ما : لماذا تقوم بهذا الفعل ؟ يجيب إن ضميري يأمرني به وليس لي أي هدفاً آخر ، وان قال إنني افعله من اجل هدف معين فقد خرج الفعل عن كونه أخلاقيا ، وإذا سألنا كانت : لماذا يفضل الناس الإيثار ؟ ولماذا يعرفون الحق ؟ ولماذا يلتذّون بالعفو أكثر من الانتقام ؟ ولماذا يعدّون الاستسلام للذل أصعب من التضحية بالذات ؟ وهل الإنسان خلق فاعلاً للخير بحسب فطرته وغريزته ؟ أي هل منح وجداناً يدعوه إلى الخير ويأمره بالإحسان ؟

من الواضح أن هذه النظرية صحيحة إلى حد ما لكنها تحوي على بعض الإشكالات الواضحة ، وهذا ما سنوضحه على النحو الآتي :

إشكالية معيار الوجدان بالنسبة لكانت

إن معيار الفعل الأخلاقي بالنسبة لكانت هو وجدان الإنسان الفطري فهو يعتقد أن في باطن كل إنسان يوجد مناد مقدس للأخلاق يحثه على أفعال الخير وينهاه عن أفعال الشر ، بمعنى إن النداء هذا يقول له : قل الصدق وتجنب الكذب، وكن أمينا ولا تكن خائناً .. ! إن هذا المذهب – مع انه يتضمن جانب من الحقيقة لاحتوائه على بعض الملاحظات القيمة – لكن فيه خطأ واضحاً ، وان أي معيار مهما بدت الحقيقة فيه واضحة فإنها لا تحتوي على نقيضها ، بمعنى لا يمكن للحقيقة أن تجتمع مع الخطأ ، ولا شك ان كانت يعتقد اعتقادا راسخاً بالوجدان الأخلاقي فيرى ان وجود الله لا يمكن إثباته بالبرهان العقلي وإنما يمكن إثباته بالوجدان الأخلاقي ، وهذا غير صحيح لأننا نستطيع ان نثبت عن طريق الدليل العقلي ومن دون اللجوء إلى إنكار طريق الوجدان – حرية الفرد واختياره ووجود الله تعالى – بمعنى ان الأفعال والواجبات والأمور الأخلاقية المستلهمة من الوجدان هي نفسها يستطيع العقل إدراكها وإصدارها ، فمن الخطأ في تصور كانت ان يتخيل الإنسان بان شعوره الأخلاقي منفصلا عن الشعور بمعرفة الله ، وان مهمة الوجدان هي القيام بالتكليف الفطري دون الحاجة إلى معرفة المكلف ، فهو يحاول تصوير الضمير بأنه المكلف لان مهمته تعيين التكليف النابع من أعماق الضمير الإنساني ولا حاجة لأي شروط أخرى ، بمعنى ان الفعل الأخلاقي في مذهب كانت يصبح من مقولة التكليف الوجداني ، نعم : ان كان يعتقد بالإلهام الفطري وان الفعل الأخلاقي هو الذي يأخذه الإنسان من ضميره الفطري الممنوح له من قبل الله سبحانه ، ان كلامه هنا ، صحيح إلى حد ما ، لان ضمير الإنسان يدرك التكليف كما يدرك المكلف فالضمير وإلهاماته جميعها ناشئة من معرفة الإنسان الفطرية لله سبحانه – وهذا هو مضمون الخطاب القرآني في قوله تعالى : ((وَنَفْسٍ وَمَا

سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)) [الشمس / ٧-٨] ، وكذلك قولــه تعــالى : ((تَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)) [المائدة / ٢] ، فهذا يدل على ان الله سبحانه قد غرس في فطرة الإنسان القدرة على التمييز بــين البر والتقوى والإثم والفسوق ، ، أي في الأمور الفطرية لا يحتاج الإنسان الرجوع إلى الآخرين ، وإنما يسال قلبه أو ضميره ويأخذ الجواب منه .

من الواضح ، ان مذهب كانت يؤمن بوجود حقائق تســبق التجربــة وان أحكام الوجدان لم يحصل عليها الإنسان عن طريق الحس والتجربة وإنما هي جزء من فطرته وكيانه أي انه يعتقد بمسألة الإلهام الفطري ، ثم إننا نؤخذ على مذهبــه حين يقول : ان الوجدان الأخلاقي يدعو إلى الكمال لا إلى السعادة فهو يفصل بين الكمال والسعادة ويرى ان العالم فيه خير واحد وهو الإرادة الخيــرة ، بمعنــى ان الطاعة المطلقة لا تكون إلا لأوامر الضمير ، سواء أكانت فيها لــذة أم عــذاباً ، ويرى ان الضمير لا علاقة له بالسعادة وإنما هو مرتبط بالكمال ، أي ان الســعادة لديه شيء والكمال شيء آخر ، وبالتالي هل الكمال غير السعادة ؟ وهــل يمكــن فصل الفعل الأخلاقي عن السعادة ؟

نحن نعتقد انه لا يمكن فصل السعادة عن الكمــال ، لان كــل الكمــالات الأخلاقية هي لون من السعادة وما السعادة والأخلاق إلا توأمان ، فالسعادة الواقعية هي صيرورة الأخلاق الفاضلة وملكات راسخة ظاهراً وباطناً (٢١،ج١، ص٧٤) ، وإلا كيف للإنسان ان يختار سبيل الكمال دون الوصول إلى السعادة ؟ لا بــل ، هل الإنسان عندما يصعد إلى الملكوت الأعلى بواسطة يكون سعيداً أم شــقياً ؟ ان السعادة في نظر كانت هي الحصول على اللذات المادية بعيداً عن اللذات المعنوية وإلا فالسعادة لا يمكن فصلها عن الكمال ، والإشكال الآخر عنــد كانــت يتعلــق بقوله : ان الإنسان عندما يخالف ضميره فانه يشعر بالألم في وجدانه ، نحن معــه في هذا الاتجاه ، ولكننا نسأله : إذا كان الإنسان يشعر بالألم عندما يخالف ضميره فكيف لا يشعر باللذة والسعادة عندما يطيع أوامر ضميره ؟ لا شك إنها سعادة فــي مستوى من اللذة والعظمة ، كما انه يشكل على نفسه عندما يقول ان الإنسان يشعر

بالمرارة عندما يطيع أوامر ضميره وهذا ما يتعذر تصديقه فكيف يشعر بالعذاب عندما يطيع أوامر ضميره ؟ وأيضاً يشعر بالعذاب عندما يخالفها ؟ نعم : قد يشعر بالعذاب عندما يخالف أوامر ضميره ، ولكن من المؤكد انه يشعر بالسعادة والسرور عندما يطيعها ، فالإنسان الذي يقوم مثلاً ، بالأفعال الأخلاقية كالإيثار والأمانة والصدق والتضحية في سبيل الآخرين فانه يشعر بعد ذلك باللذة المعنوية من الرضا والسرور ، أي ان السعادة الإنسانية ليست منحصرة في اللذات المادية والجسدية بل تشمل اللذات المعنوية والروحية ، فالإنسان المحبوب مثلاً ، يشعر بالسعادة عندما يجد نفسه محبوباً عند الناس ، والإنسان البطل يشعر باللذة عندما يحصل على المدح والثناء ، لا بل حتى العالم يلتذ عندما يكتشف حقيقة علمية ، إذن لا يمكن فصل موضوع السعادة واللذة عن الأمور المعنوية ، وكذلك لا يمكن الفصل بين الكمال والسعادة لان كل كمال تسبقه لذة شئنا أم أبينا ، كذلك نحن نشكل على كانت حينما يقول ان أحكام الوجدان مطلقة بالنسبة للأفعال الأخلاقية وهنا نسأله : لو رأيت مجنونا ظالما وقد امسك بيديه سكينا وهو يبحث عن رجل مسكين ليقتله وسألك هل تعرف مكانه وأين هو ؟ فما جوابك ؟ ان قلت لا ادري: فهو كذب وهذا خلاف حكم الوجدان وان قلت ادري : سالك اين هو ؟ فهل ترشده إليه ؟ ان دللته عليه قصده وقتله بغير حق ! فهل حكم وجدان الإنسان في الواقع مطلق إلى هذا الحد بحيث يأمره بالتزام الصدق وبغض النظر عن النتائج المترتبة عليه أم لا ؟

لا شك ان مذهب كانت هذا لا يصح ، فكيف يصح للإنسان ان يعتقد بأنه لا بد من التزام الصدق وان أدى إلى انتشار الجرائم البشعة في المجتمعات البشرية ! من المعلوم ان الفقه الإسلامي يجيز الكذب إذا ترتبت عليه مصلحة ولكنه يطلب من الإنسان ان لا يعود نفسه عليه ، نعم : ان الكذب لمصلحة خير من الصدق الذي تترتب عليه فتنة .

والحاصل : ان الكذب لدفع ضرر جائز بشرط صحة القصد فالكذب المباح يكتسب ويحاسب عليه لتصحيح قصده ، فإذا كان قصده صحيحاً يعفى والا يؤاخذ

به (٢١ ، ج٢ ، ص١٤٠) ، وكذا الغيبة فهي محرمة ولكنها مستثناة من الحرمة في بعض الموارد ، لكننا ينبغي ان لا نعتاد عليها .

إذن ، نحن نعتقد ان بعض أحكام الوجدان مطلقة وليست كلها ، كما يدعي كانت .

ثالثاً : معيار تكامل المجتمع

التكامل الاجتماعي : يمكن معرفته من خلال الإشارة إلى ما نعبر عنه بـ (مبدأ ضبط الاختلاف بين الناس) ذلك من خلال إيجاد الانسجام والوحدة في المجتمع الإنساني ومعالجة الاختلاف فيه ، فإذا كان المجتمع مختلفاً في مجال العبادة أو في التأويل والتطبيق فسيكون مجتمعاً ضعيفاً غير قادر على التكامل (١٤ ، ص٥٣) ، وهذا التطبيق له مراتب ومستويات فكلما تكامل التطبيق كان التكامل أكثر للمجتمع ، ولا شك ان الاختلاف ظاهرة من الظواهر التي تحكم المجتمعات البشرية ، ولكن وجود معايير الفعل الأخلاقي أساس في معالجة الاختلاف ، وفي عصرنا الحاضر توجد نظريات تؤمن بمبدأ تكامل المجتمع كمعيار في تفسير الفعل الأخلاقي ، ومن هذه النظريات : النظرية الماركسية التي يسيطر المنطق المادي عليها ، إذ لها نظام أخلاقي واحد في مجال معيار الأخلاق وهو التكامل الاجتماعي القائم على أساس تكامل وسائل الإنتاج : أي الوسائل التي يؤمن بها الإنسان حياته بمعنى ان كل فعل يدفع المجتمع نحو التقدم والتحول ويهديه إلى الرقي والتكامل فهو فعل أخلاقي مهما كانت صورته وكيفيته ، وكل فعل يحول دون تكامل المجتمع فهو غير أخلاقي مهما كان لونه وشكله مثلاً ، لو كان هناك أناس فقراء جياع ونستطيع إشباعهم فان هذا لا يكفي لكي يصبح الفعل أخلاقيا وإنما لا بد ان ننظر إلى هذا الفعل في أي اتجاه يكون ، وهل الآثار التي يتركها على المجتمع في نهاية الأمر – حتى وان كانت هذه الأفعال تبدو إنها أخلاقية – تؤدي إلى تأخير تكامل المجتمع أم لا ؟ ولو كان عملك في إشباع الجياع يؤدي إلى إسكات غضب الناس المحرومين على الطبقة الحاكمة وإشاعة الهدوء فانه عمل غير أخلاقي فدع المشكلات تشتد حتى تثير غضب الناس وتهيجهم أكثر

ودع التضاد والنزاع يصل إلى ذروته فما لم يحصل ذلك فان الثورة لا تحدث وان المجتمع لا يمكن ان يصل طريق التكامل .

إذن ، المعيار الوحيد للأخلاق في هذا المذهب هو التكامل القائم على أساس تكامل وسائل الإنتاج ، نعم : انه معيار جذاب ولكننا نسأل : على أي أساس يعتقد هذا المذهب ان معاييره الأخلاقية هي معايير للتكامل؟ وما هو التكامل عنده ؟ وما هي السبل إلى هذا التكامل ؟ الإجابة عن هذه التساؤلات تنحصر في الآتي :

نقد إشكالية الأخلاق الماركسية في تكامل المجتمع

للتأمل في معيار الأخلاق لدى الماركسيين نجده الثورة وليس التكامل كما يزعمون ، بمعنى ان كل عمل يدفع المجتمع نحو التقدم والازدهار فهو فعل أخلاقي مهما كانت صورته وكل عمل يحول دون تكامل المجتمع فهو ضد الأخلاق مهما كان لونه ، نحن لا نسلم بان المجتمع لا يصل إلى الرقي والكمال إلا عن طريق الثورة فما أكثر الثورات التي حدثت دون ان ينال المجتمع كمالاً بسببها والمجتمع في أي مرحلة يحمل في أعماقه ضده ونفيه فينجر ذلك إلى الصراع والحركة وتنتهي من التغيير الكمي إلى التغيير الكيفي للمجتمع ، فتتحقق الثورة الاجتماعية ويتحول النظام الاجتماعي من نظام سابق إلى نظام جديد وفي مستوى ارفع ، وطالما ان التكامل هنا يعني الثورة الناشئة من التضاد الداخلي في المجتمع وليست هو التكامل الناشئ من الإصلاح التدريجي ، فان كل فعل يسرع بالمجتمع نحو الكمال فهو أخلاقي وكل فعل يؤدي إلى تؤخر الرقي والكمال فهو ضد الأخلاق ، وهنا ستتغير جميع المعايير الأخلاقية ، فالكذب مثلاً : إذا كان هو الذي يسرع بالثورة فهو فعل أخلاقي ، وان كان الصدق هو الذي يعجل بها ، فهو أخلاقي ، وكذا الأمر بالنسبة للأمانة أو الخيانة ، والأنانية أو الإيثار ، والحرب أو السلام ، فلو حاولت مثلاً : ان تكف ظلم الظالم فان ذلك يؤدي إلى تهدئة المظلوم ، وعندئذ لا يشتد الصراع بينهما ، فمن الواجب الأخلاقي – كما يزعمون – ترك الظالم

يظلم أكثر حتى يشتد الصراع وتتعمق الفجوة ، وإلا فلا تحدث الثورة ولا يتيسر للمجتمع أن يصل إلى التكامل .

إذن ، الثورة هي معيار الأخلاق في هذا المذهب وليس التكامل ، إن الماركسيين لهم فلسفة خاصة في التكامل ناشئة من علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، ويعتقدون بان التاريخ لا يتقدم إلا بشكل ثوري (فالتكامل والثورة عندهم شيء واحد) وما عدا ذلك فهو مضاد للتكامل وللأخلاق .

أن هذا المذهب أحادي القيمة ليس للإنسان في نظره إلا قيمة واحدة هي الثورة الاجتماعية ، ونحن لا نستطيع أن نصبح أحادي القيمة ، فالتكامل الاجتماعي قيمة والتكامل الفردي قيمة أخرى ، ولهذا يحدث التعارض بين القيمتين، وهذا لا يعني إننا نعترف بان تكامل المجتمع هو معيار الأخلاق ، لماذا ؟ لأنه يضفي الأصالة على المجتمع ويسلبها من الفرد ، كذلك نحن لا نسلم بان التكامل لا يحدث إلا عن طريق الثورة فكم وكم من الثورات حدثت ولم يبلغ المجتمع عدلاً ولا كمالاً ، فلا تكامل للمجتمع في ظل الثورة التي تؤدي إلى اضطهاد الشعب وظلمهم ، نعم : قد يسكت المواطنين خوفاً ولا يتحدون السلطة الحاكمة ولكنهم لا يملكون هدوءاً نفسياً بل تمتلئ قلوبهم غيظاً وحقداً وينتظرون الفرصة المناسبة للثورة على حكامهم والتحرك نحو الترقي والتكامل المنشود و قال الإمام الصادق (عليه السلام) : ((من زرع العداوة حصد ما بذر)) (١٧ ، ص٤٦٥) .

إذن ، ما هو السبيل إلى هذا الرقي والتكامل الذين يصبون إليهما ؟

إن الإرضاء الصحيح لغريزة حب الوصول إلى التكامل الحقيقي يمكن أن يتحقق في ظل الحرية والعوامل المساعدة فقط ، بمعنى إن الإنسان يستطيع السعي وراء الكمال طالما كان طريق التقدم والرقي مفتوحاً أمامه ولا تعترض سبيله الموانع الفردية والاجتماعية والتي تحد من السير نحو الرقي والتكامل ، فمن أهم شروط التكامل الاجتماعي هو نشر الحرية والعدل والمساواة بعيداً عن الظلم والاستبداد والحرمان ، فهذه من المحتم أن تقطع السبيل إلى التكامل من ذلك المجتمع .

وعليه ، فإننا لا نؤيد أصحاب هذا المذهب الماركسي في معاييرهم الأخلاقية ، لأنهم يؤمنون بفلسفة التكامل والثورة – وهذه لديهم شيء واحد – ما عدا ذلك فهو مضاد للتكامل وللأخلاق .

رابعاً : معيار العاطفة

العاطفة : هي استعداد عقلي وانفعالي مكتسب يرتبط بموضوع معين ويؤدي إلى دفع الإنسان للقيام بأنواع من السلوك ترتبط بذلك الموضوع ، بمعنى هي مجموعة من الانفعالات والميول الثابتة نسبياً نحو شيء ما ، كعاطفة الحب أو حب العدل والفضيلة أو عاطفة حب الحياة وغيرها (١٠ ، ص٢٣٠) ، وكما يلعب العقل دور الدليل المرشد في ضمان سعادة الإنسان فان الطاقة المحركة له هي العواطف والمشاعر ، أي أن الإنسان يواصل سيره التكاملي في ظل العقل والعاطفة ، وعليه ، فان المجتمع الذي يعمل على أحياء العقل والعاطفة معاً هو اسعد المجتمعات فبالعلم يتقدم نحو الترقي والتكامل وبالعواطف والأخلاق توجد البيئة الصالحة ، إلا أن الملفت للنظر ، أن هناك نظريات قديمة في مجال بيان المعيار الأخلاقي في كون الأفعال أخلاقية ، ألا وهي النظرية العاطفية ، حيث نعد السر في كون الأفعال أخلاقية كامناً في العواطف البشرية فقط ، ونرى إن الفعل الطبيعي هو ذلك الفعل الذي ينبع من الدوافع والرغبات النفسية والميول والحاجات الطبيعية عند الإنسان والغاية منه هو الحصول على المنافع الشخصية ، بمعنى أن الفعل الطبيعي حسب هذه النظرة لا يكون خارجاً عن نطاق الذات أو حدود الأنا لان الميل المرتبط بالأنا يريد أن يوصل الخير إلى نفسه ، ولا يوصله إلى الآخرين ، وحسب هذا الاتجاه نرى إن المعيار الأخلاقي في كون الفعل أخلاقياً هو العاطفة فهي المحرك والباعث لكل فعل في الإنسان بما فيه حب الخير إلى الآخرين ، والأسئلة التي تطرح هنا ، هي : إذا كانت العاطفة بما فيها حب الغير معياراً لكل فعل أخلاقي فماذا لو بقيت العاطفة مطلقة السراح ، وبقي الإنسان خاضعاً لتأثير عواطفه ؟ فهل كل عمل يقوم به يعد فعلاً أخلاقياً ؟ افرض انك شاهدت إنساناً

مجرماً يستحق العقوبة ، فهل تأمر بعقوبته من مصلحة البشرية جمعاء أم تتركه رأفة به ورحمة ؟ وأيهما فعل أخلاقي العاطفة أم القسوة ؟

نحن نؤخذ على هذا المعيار ، لان فيه إشكال – وان كان له بعض الجوانب الايجابية – فهو لا يبين سوى جانب واحد من الحقيقة ، لان المجال الأخلاقي أوسع من العاطفة وحب الغير ، فهل الفضائل الأخلاقية محصورة على حب الغير فقط ؟ أم أن نطاقها يتجاوز حدود الإنسانية إلى الأفق العالمي ؟ هذا ما سنوضحه على النحو الآتي :

إشكالية المعيار العاطفي :

لا شك أن عاطفة حب الآخرين والإحسان إليهم حالة مشتركة بين جميع الأديان السماوية ومعظم المذاهب الفكرية في العالم ، فليس في عالم الكون والحياة شريعة لم تؤكد على عاطفة حب الغير ، ولكن قد نجد في اغلب الأديان والمذاهب الفكرية بان عاطفة الحب تشكل المحور الأساسي لكل أفعالهم الأخلاقية ، بينما في بعض المذاهب الأخرى لا تجعل الحب سوى عامل واحد من العوامل الأخلاقية ، فمثلاً ، يمكن للباحث في طبيعة المجتمع الهندي أن يجد إن العاطفة هي المحور الأساسي في صفاتهم وسلوكياتهم الأخلاقية ولكن في المجتمع المسيحي تقتصر الأخلاق على العاطفة والمحبة ، حيث يعلن المبشرون المسيحيون بأنهم رسل المحبة وان السيد المسيح (عليه السلام) هو حامل رسالة المحبة .

نحن نؤخذ على هذا المعيار لان الإنسان فيه يقصر حبه على أبناء نوعه دون إن يشمل حب كل المخلوقات الحية ، وهنا نلفت النظر إلى انه ليس كل من بني ادم يستحق الحب مهما كانت صفاته وسلوكياته ، فمثلاً ، هل نحب هولاكو لأنه إنسان أيضاً ؟! أم نحب يزيد بن معاوية لأنه إنسان أيضاً ؟ ! فهؤلاء أفراد ولكن ضد الإنسانية فهل نحبهم وهم يفتقرون للقيم الأخلاقية ؟ أن الحب والرحمة لهؤلاء تعني القسوة لمئات الناس المستضعفين ، ولو عفي عن كل مجرم رأفة به لازداد تجبراً على الله وظلماً للعباد ، فللعفو حدود ، وإلا اندفع الإنسان إلى التمادي في الجرائم .

نعم : إن كل إنسان لائق للمحبة هو حتماً يتمتع بمقدار من القيم الرفيعة ، وإذ ندرك إن إنسانا كاملاً يحب إنساناً فاقداً للقيم الإنسانية ، فلنتوقع إن ذلك لا لشيء وإنما من اجل أن ينقذه مما هو عليه من الانحطاط الخلقي والوصول به إلى قمم السمو الروحي والأخلاقي وهذا ما جسدته الصورة الحية التي أصبح بها النبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم) رحمة للعالمين سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين .

لذا ، لا يمكن أن نعد كل عاطفة حب هي فعل أخلاقي – وان كانت قابلة للمدح والثناء – فهناك الفعل الأخلاقي الوراثي والفعل الأخلاقي المكتسب ، فهل تعد مشاعر الوالدين تجاه أبنائهم عملاً أخلاقياً ؟ وهل نعد عمل الذي يستمتع بالقوة الجسدية بأنه أخلاقياً ؟ لا شك إن عمل هؤلاء عظيماً وقابل للثناء ولكن لا يعد أخلاقياً لان عمل ذلك القوي يكمن فيه عنصر الاختيار والاكتساب وانه ليس عاملاً وراثياً ، لذلك لا يعد فعلاً أخلاقياً ، كذلك لا نستطيع تسمية عاطفة الأم تجاه أبناؤها بالفعل الأخلاقي ، نعم : ان هذه العواطف هي مشاعر حب الغير وخارجة عن نطاق الذات لكن هذه الأم لا تشعر بهذه المشاعر تجاه أطفال الجيران مثلاً ولا تبالي لهم ، لان فعلها هذا يعد فعلاً فطرياً وليست مكتسباً بالإرادة والاختيار إنما هو بسبب الإلهام الغريزي لعاطفة الأمومة التي تستوجب منها رعاية أبنائها ، لذا لا يعد عملها هذا أخلاقياً وكذا الأمر بالنسبة لجميع المشاعر المكتسبة فهي لا تعد عملاً أخلاقياً – وان كانت قابلة للمدح والثناء – وبتعبير آخر إن مجال الفضائل الأخلاقية ليس منحصراً في عاطفة الإحسان وحب الآخرين ، بل يتجاوز حدود الإنسانية جمعاء فمثلاً : هناك مجموعة من الأمور الأخلاقية العظيمة التي تستحق الثناء موجودة في كل إنسان ومع ذلك لا علاقة لها بعاطفة حب الآخرين أمثال : صفة الإيثار والإحسان ورفض الذل فالأفراد مختلفون في مواجهة الظروف التي يتعرضون لها فالبعض منهم يتحمل الألم والعذاب حفاظاً على عزتهم وكرامتهم والبعض الآخر لا يتحمل الضرر المادي والنفسي الذي يلحق به وعندئذ يستسلم للذل والهوان ، ولعل من يرجع إلى تاريخنا الإسلامي يلاحظ أناساً بذلوا مهجهم دون أن يرضوا بالذل والهوان أمثال سيدنا الإمام الحسين بن علي (عليه السلام)

الذي أطلق كلمته المشهورة والتي تقطر كرامة وعزة حين قال : ((موت في عز خير من حياة في ذل)) (١٦ ، ص١٩٢) والمنطق القرآني يؤكد ذلك في قوله : ((وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)) [آل عمران / ١٣٩] .

إذن ، حسب هذا المعيار ليس صحيحاً أن تكون عاطفة حب الآخرين هي المعيار الحقيقي للفعل الأخلاقي لأنها إذا تغلبت على العقل أدت إلى انتشار الفساد في الأرض والبعد عن الحق ، ثم أن هناك في العالم ألوان مختلفة من الأمور الأخلاقية غير حب الآخرين تستحق التقدير والتقديس لان نطاق الأخلاق أوسع من حب الغير ، لذا فان هذا المعيار يبين جانب واحد من الحقيقة ولا يصور كل الحقيقة .

خامساً : معيار الإرادة

إن لفظة الإرادة – من حيث الاستخدام اللغوي – تعني الرغبة والتصميم ، ومن حيث الاصطلاح تعني التنفيذ والقوة التي تصنع الأشياء (١٩ ،ص١٥٣-١٥٤) ، أي حجة الإنسان الواقعية ، كلك فهي كيفية نفسانية وجدانية كسائر الوجدانيات كاللذة والألم ، وقد عرفها البعض بأنها اعتقاد النفع ، والكراهة هي اعتقاد الضرر وعرفها آخر بأنها الشوق النفساني الحاصل بعد اعتقاد النفع(٧ ، ص٨٣) ، كما إن قوة الإرادة هي التي تدفع الإنسان إلى استيعاب الأدلة والبراهين فإذا كانت قوية فإنها توجه العقل إلى جانب الصلاح وإذا كانت ضعيفة فان العقل سوف يتخبط ويضل الطريق ، أي أن تقويتها لدى الإنسان تدفعه إلى مواجهة غرائزه النفسية ، فإذا استطاع أن يتغلب عقله على شهوته ويؤمّر العقل على الشهوة ، فهو أفضل من الملائكة أما إذا جعل العقل أسيراً للشهوة ، والشهوة أميرا للعقل فهو أضلّ من الأنعام (١٣ ، ص٧١) ، ولا شك إن من أسس مفهوم الإرادة إن المرء لا يستطيع أن يجعل كل شيء بدون وجود عقبات ، لذا وجدت الإرادة من اجل أن يعيش في عالم يستلزم الكفاح والجهاد في سبيل الحياة (٥ ، ص٧٢) .

وعليه ، فان الإرادة هي العزم والتصميم الحازم على الفعل فالفاعل يمر بحالات من التردد والحيرة قبل ان يقدم على الفعل وحين ترجح كفة منافعه يصمم

ويعزم على الفعل ، وفي باب المعايير الأخلاقية للإنسان ، هناك نظرية تعد الأفعال الأخلاقية من مقولة الإرادة ، إذ ترى إن الأساس في كون الفعل أخلاقياً هو للعقل والإرادة وليس الميل أو العاطفة ، وهنا ، من حق القارئ ان يسأل هل الإنسان أو الحيوان متحرك بالإرادة أم بالميل ؟ وهل ان الإرادة هي نفسها الميل ؟ أم الإرادة غير الميل ؟ لتوضيح الإجابة لابد من الاستشهاد ببعض الأمثلة التي نستعرضها بالمقدمة الآتية :

<u>الفرق بين الإرادة والميل :</u>

تختلف الإرادة عن الميل من حيث ان الميل لدى الإنسان هو نشاط يمارسه الفرد بنفسه أو مع غيره بحيث يقع في بؤرة اهتمامه ، فهو استجابة موضوعية تحصل عن طريق التعلم والاكتساب بسبب التفاعل بين الفرد وبيئته المادية والاجتماعية والنفسية ، وقد يكون إليه الدافع قوياً نابعاً من رغبة في أعماقه يؤدي إشباعه إلى تحقيق حالة من اللذة والسعادة المصاحبة (٣ ، ص٣٨١-٣٨٢) ، وقد يعرفه البعض على انه شعور بحب شيء أو نشاط قد يمتد من الحب إلى الكره عبر الحياد فإذا توافرت الميول والدوافع مع القدرات فان هذا يؤدي إلى السعادة والرضا والعكس صحيح (٦ ، ص١٦٣) ، كما يمكن ان يميل الفرد إلى عمل معين دون ان يملك الإرادة والاستعداد الكافي للنجاح فيه (٢ ، ص٤١٥) .

وعليه ، فان الميل هو انجذاب باطني يجذب الإنسان نحو الأشياء الخارجية ، فمثلاً ، عندما يجوع الإنسان أو الحيوان فانه يميل إلى الطعام وعندما يشعر بالعطش فانه يميل إلى المشروبات وإذا شعر بالتعب فانه يميل إلى الراحة وعندما يشعر بالشهوة الجنسية فانه يميل إلى الجنس الآخر ، بل حتى العواطف الإنسانية النبيلة تعد من الميول النفسية الرفيعة ، وهنا : يتضح ان جميع هذه الميول تجذب الإنسان نحو شيء معين بمعنى ان الميل علاقة بين الإنسان والعالم الخارجي ، وحسب نظرية الإرادة : فان الإرادة تعني إخضاع جميع الميول النفسية والمضادات للميول والرغبات الذاتية ، وعندئذ يصبح الفعل الأخلاقي هو الفعل

المستند إلى المقارنة بين المصالح ، والذي تفضّله الإرادة وليس هو الفعل الناجم من تسلط احد الميول أو الميل المضاد عليه ، وبناءً عليه ، هل هذا المذهب صحيح أم لا ؟ الجواب يتمثل بالاتي :

إشكالية معيار الإرادة

مما لاشك فيه ان هناك فرق واضح بين حركة الإنسان وحركة الحيوان ، فالإنسان يستطيع ان يتحرك في بعض الأحيان بالإرادة والعقل بمعنى أينما وجد العقل وجدت الإرادة ، وفي أحيان أخرى لا يكون متحركاً بالإرادة وإنما متحركاً بالميل والشوق والعاطفة لذا يخطئ من يتصور بان جميع الحيوانات متحركة بالإرادة وإنما الصواب هو أنها تتحرك بالميل والشوق دائماً لان الباعث والمحرك في الحيوان هو ذلك الميل والشوق بينما الباعث والمحرك عند الإنسان هو مجموعة الميول والرغبات والإرادة العقلية ، فالإرادة ليست كالميل وإنما هي علاقة بين الإنسان وعالمه الباطني ، فحين يفكر الإنسان ويقارن بين الأفعال وعواقبها فانه يقيس الأمور بعقله بمقدار ما فيها من المصالح والمفاسد ثم يتم تشخيص ما هو الأصلح والأفضل ، فأحياناً يحكم العقل بما تقتضيه المصلحة ، فيتخذ قراره بناءً على ذلك بالرغم من انه يخالف الميل الذي يشعر به في نفسه ، فمثلاً ، الإنسان الملتزم بنوع من الغذاء عندما يجلس إلى مائدة تحوي ما لذ وطاب من أصناف الطعام فالميل يجذبه لكي يتناول من ذلك الطعام اللذيذ لكن إرادته وعقله يأمره بالامتناع عن تناول ذلك الطعام لأنه يدرك مسبقاً بان ذلك سيسبب له بعض الأمراض الجسمية فهو هنا اخذ بفتوى العقل وتجنب لذة الميل ، وكذا الأمر بالنسبة إلى المريض الذي لا يميل إلى تناول دواء معين ولكنه عندما يقيس الأمور بعقله فانه يتناوله لان المصلحة تقتضي ذلك بالرغم من انه لا يرغب فيه ولا يميل إليه ، وإذ ندرك ان العقل يفكر بعواقب الأمور فلو اجبر الإنسان على فعل تحت تأثير العواطف وحب الإنسانية فان فعله هذا لا يعد أخلاقياً لان العاطفة حرقة قلب وعندما يحترق القلب فلربما يفعل شيئاً خارج نطاق الإرادة وهذا دليل على ضعف

الإنسان في حين ان عاطفة المحبة عندما تقوم بنشاطها في ظل فتوى العقل والإرادة فالنتيجة تصنع إنساناً متكاملاً متوازناً في أفعاله ، بمعنى انه في بعض الأحيان تصدر من الإنسان أفعالاً على درجة من الرقة واللطف والعظمة في المواقف التي تستوجب ذلك وفي أحيان أخرى تصدر منه أعمال تتسم بالخشونة والعنف والغضب والثورة دون ان تدمع له عين لا بل قد يكون اشد قسوة حسب ما يقتضيه الموقف ، وفي مجال آخر قد يهتز لمجرد رؤية منظر بسيط مما يعكس بان لديه روحاً ارق من الورد وألطف من النسيم وهذا دليل على نضج الشخصية وتكاملها في كل الأبعاد الحياتية النفسية منها والاجتماعية والعقلية والجسمية ، وهذا ما يدعو إليه المجتمع التربوي الإسلامي في الحياة ، ففي بعض الموارد تحكم فيها العاطفة بنحو من الأنحاء ويحكم العقل والإرادة بنحو آخر ، فإذا كانت العاطفة حرقة قلب فان العقل يفكر ويدرك المصلحة ويقيم الأمور ويزنها فلا بد من جعل الزمام بيد العقل والإرادة ، فمثلاً : كثيراً من الأفراد قد تحترق قلوبهم عندما يشاهدون إنساناً مجرماً وهو يتلقى عقابه فيقولون حبذا لو عُفي عنه ، بمعنى ان العاطفة هنا تقول لا تعاقب ، ونحن نسأل هؤلاء : لو عُفي عن كل مجرم فهل يتحقق الأمن والأمان في المجتمع ؟ وهل تختفي الجرائم والسرقات ؟ ان الرحمة هنا ، أمر عاطفي لا يستند إلى العقل والإرادة والمصلحة ، ومع ان العاطفة فيها حب الغير وليست حب النفس لهذا فهي تأمر بالكف عن عقوبة المجرم بينما يستلزم من العقل ان يستعمل العنف والعقوبة إيماناً بمصلحة البشرية جمعاء .

وعلينا ان ندرك ، ان إطلاق سراح الرحمة والعاطفة تجاه السارق والزاني ما هي إلا انتشاراً لكثير من الجرائم اللاخلاقية التي تؤدي إلى قتل النفوس البريئة وفقدان الأمن النفسي والاجتماعي ، وقد يستغرب البعض من ان قطع يد السارق أو جلد الزاني لا يتلائم مع الإنسانية ويعد قسوة بحقه ، ولكن ماذا لو نفذ هذا القانون بصورة صحيحة ؟ هل ينقطع دابر السرقة والزنا ؟ أم ستستمر هذه الأفعال المحرمة بالانتشار ؟ وان استمرت ماذا يكون مصير الأفراد في المجتمع ؟ يجيب الباري عز وجل : ((وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ

اللّهِ)) [المائدة / ٣٨] ، وكذلك قوله تعالى : ((الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)) [النور / ٢] . إذ ان علة العقوبة في جريمة السرقة هي المحافظة على الأمن الاجتماعي العام وكذلك عقوبة الزنا حفاظاً على الأعراض والأنساب في المجتمع لان كلاً من الرجل والمرأة إذا عمت بصيرتهما عن الإيمان يلتذ بهذه المتعة المحرمة ، كما ان الرقة والرأفة بهؤلاء لا تجوز حفظاً لإقامة حدود الله قال تعالى : ((وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)) [البقرة / ٢٢٩] ، لان الله لم يقصد من العقوبة إيذاء الناس وإنما قصده الإصلاح وقطع دابر الإفساد في الأرض ، لذا كانت علة العقاب ليست انتقام فردي بل هو بلسم اجتماعي يقصد منه الردع قبل القطع والجلد .

وعليه ، لابد للإنسان ان لا تأخذه الرأفة بمن يأتي بهذه المحضورات ولا بد ان يكون الجانب الإنساني والعاطفي تحت ظل سلطة العقل والإرادة بحيث تصبح كل العواطف والميول الإنسانية تحت وصاية عقله وإرادته تجسيداً لقول الإمام علي (عليه السلام) : ((ثمرة العقل لزوم الحق وقمع الهوى)) (١١ ، ص٦٤٨) . ومع ان بعض الناس لا ينفع معهم ورع إذا تنافست لديهم الدوافع الذاتية والموانع الخارجية فحينئذ يقعون في حيرة وتردد وانفعال ، لذا لا يمكن عد معيار الإرادة مفسراً للأفعال الأخلاقية للإنسان .

وهكذا ، يكون البحث قد تم في معايير الفعل الأخلاقي واهم خصائصها وابرز من اعتمدها من المذاهب الفكرية وهذا ما تطلبه الهدف الثاني من البحث ، ونشرع الآن في البحث في منهج حل الإشكالات المثارة بشان هذه المعايير، وعلى النحو الآتي :

((المبحث الرابع))
منهج حل الإشكالات المثارة

معيار العبادة

إن العبادة حاجة ثابتة وواجبة وضرورة من ضرورات حركة الإنسان وتكامله في طريقه نحو الله تعالى (١٤ ، ص٦٢) ، وللعبادة صلة بالمعايير الأخلاقية ، إذ إن العبادة روح أخلاقية في جوهرها لأنها أداء للواجبات الإلهية ،

وان الصالحين هم الذين يتمتعون بمعايير أخلاقية إيمانية فهم الحجة الوحيدة القادرة على تمييز الخير عن الشر والصواب عن الخطأ ، كما أن القوة الدينية وحدها هي القادرة أن تضفي على المبادئ والأفعال طابع القدسية وتفرضها فرضاً تاماً على الإنسان (٢٤ ، ص[٣٥]) ، أي أن هناك فرق بين عمل يتم عن إيمان ورضى وبين عمل يتم تحت تأثير العقد والضغوط النفسية ، وبما أن العبادة إيمان وأخلاق وعمل صالح ، فهي الطريق إلى بقاء القيم الخلقية التي تعتبر إطاراً مرجعياً لسلوك الإنسان وأسلوب حياته (٥ ، ص[٣٧٤]) ، وبتعبير آخر : إن وجدان العبادة يوحد بين المعيار الفطري للعمل والحياة وهو : حب الذات ، والمعيار الذي ينبغي أن يقام للعمل والحياة ، ليضمن سعادة البشرية ، وان المعيار العبادي الفطري يتطلب من الإنسان أن يقدم مصالحه الذاتية على مصالح المجتمع ومقومات التماسك فيه ، وان المعيار الذي ينبغي أن يحكم ويسود هو المعيار الذي تتعادل في حسابه المصالح كلها ، وتتوازن في مفاهيمه القيم الفردية والاجتماعية(١٥ ، ص[٥٥]) ، إن الفكر الحديث يفرق بين الإنسان كفرد والإنسان كمواطن اجتماعي فيهمل الجانب الفردي ويهتم بتنظيم الجانب الاجتماعي ، ونحن نرفض الثنائية هذه ، فقد تترتب على ذلك مفاسد كثيرة ، منها عدم إقامة وزناً لفعل الخير الفردي ما لم يعد على المجتمع ببعض الفوائد ، فمن فوائد الإيمان الفردية تكوين ضمير إسلامي في نفس الفرد يأمره بالخير ويردعه عن الشر ومن فوائده الاجتماعية الوحدة العقائدية الجبارة التي تربط الأفراد بعضهم ببعض حيث أن جميعهم يفكرون بأسلوب واحد وينظرون إلى الحياة من زاوية واحدة ، إلا أن هذه الوحدة بدأت بالتفكك في العصر الحديث عندما غزت بلاد الإسلام المفاهيم والمعايير الأخلاقية الوافدة من وراء الحدود ، تحمل بين طياتها الجرائم والاعتداءات (٢٠، ص[١٤٦-١٤٧]) .

يضم جانباً من هذا المنطلق ، نجد أن العبادة حاجة ثابتة ، وللمعايير الأخلاقية صلة بها ، وقد لاحظنا من الطرح المقدم : إن كل مذهب من المذاهب الفكرية السابقة من الحقيقة أما الحقيقة كلها فهي تكمن في أن معايير الفعل الأخلاقي للإنسان هي (نظرية العبادة) : فهي المعيار الوحيد والمفسر الصحيح

للأفعال الأخلاقية ، وترى أن هناك مجموعة من الأفعال التي تصدر من الإنسان هي تختلف عن أفعاله الطبيعية وينظر إليها الناس نظرة التكريم والتعظيم ويعدونها رفيعة ولكنها عبادة غير واعية بمعنى أن القائم بالفعل الأخلاقي يعرف الله في أعماق فطرته وغريزته بصورة غير واعية وبإحساس خاص ، فهو يعرف القانون الإلهي وبعض الأمور التي يحرص عليها بالفطرة وهذا هو مقتضى الاستسلام والخضوع للأوامر الإلهية ، فالإنسان مثلاً : يفهم بالفطرة إن العفو والتسامح وخدمة الناس والإيثار ترضي الله مع أنها لا تنسجم مع المنطق الطبيعي لان منطق العقل يأمر الإنسان بالمحافظة على مصالحه الشخصية ولكنه مع ذلك يقدم عليها وينظر إليها بلون من التقديس كما إن القائم بالفعل الأخلاقي حتى إذا لم يعترف بوجود الله ولم يعرفه فان فعله هذا يعد أخلاقياً ولوناً من العبادة لله بصورة غير واعية حتى وان كان في شعوره الواعي لا يقوم بذلك الفعل من اجل مرضاة الله ، وهنا نسأل : ما معنى أن تكون الأفعال الأخلاقية معياراً للعبادة – حتى وان كانت عبادة غير واعية ؟ هل يمكن أن يعبد الإنسان ربه بصورة غير واعية ؟ هل العبادة منحصرة في عبادة الإنسان الواعية فقط ؟ أم إنها تشمل جميع الموجودات في العالم ؟ وهل للعبادة درجات ومراتب ؟ سنعرض الحلول اللازمة لهذه التساؤلات ضمنياً – وبالتالي – نحتاج إلى بعض المقدمات التمهيدية الآتية : ما هي العبادة ؟ كيف يتسنى لنا تعريفها وتحليل معناها ؟ وما هو جنسها وفصلها ؟ لنوضح هذا ينبغي أولاً أن نتعرف على الآتي :

– إذا كان المقصود من العبادة مجموعة من الأعمال التي يؤديها الفرد بعنوان العبادة فتعريفها يصبح أمراً ميسوراً فالصلاة والصوم وأمثالهما ... تعد أنواعاً من العبادة ، وإذا كان المقصود من العبادة حقيقة من حقائق الوجود – وهي في الواقع كذلك – لان تلك الحقيقة موجودة في أعماقنا – فان تعريفها لا يصبح أمراً سهلاً للغاية – لأننا عاجزون عن تعريف هذه الحقيقة – التي هي تجل خاص بالروح البشرية ، كما أن أسمى حالات الإنسان وأعظمها هي حالة العبادة ، ففي العبادة خروج عن الإطار الضيق للذات وعن إطار الرغبات والأمنيات المحدودة ،

واللجوء والانقطاع إلى الخالق والتحليق نحو الكمال المعنــوي المطلــق ، فالــذي يصلي ويقول كلمة (قربةً إلى الله سبحانه) فان ذلك لا يدل إلا على انه واقعاً في حالة الصلاة موقعاً يرتفع به نحو القرب الإلهي .

إذن ، بعد هذا الإيضاح لتعريف العبادة وتحليل معناها ، نعود إلى الإجابة عن طبيعة التساؤلات المتقدمة : نقول في الإجابة بشان التساؤل عن معنــى الأفعــال الأخلاقية في حالة كونها معياراً للعبادة حتى وان كانت عبادة غيــر واعيــة ، إن الإنسان بحسب فطرته يعد الأفعال الأخلاقية شريفة فالعفو والكرم ونكران الذات لا تنسجم مع المصالح الشخصية بل يقدم عليها الإنسان وهو يشعر بالعز والكرامة مع أن العقل والمنطق يأمره بان لا يتنازل عن مصالحه الذاتية لان المؤمن يــدرك إن أساس الفعل الأخلاقي هو مرضاة الله ، فهو في مجال الفضائل الأخلاقية لا يعرف الأسرة والأقارب والأصدقاء والوطن وحتى المشاركين له في الدين وإنما يوســع ذاته لتشمل الإنسانية جمعاء ، وهذا ناشئ من طبيعة الفطرة البشرية ، وقد تجلــى ذلك في شخصية الإمام الحسين بن علي (عليه الســلام) عنــدما بــدأ نهضــته المباركة من اجل الإصلاح الاجتماعي حيث كان يعيش فــي جــو مــن الظلــم والاستبداد ولكنه مع ذلك لم يجهل الأفعال الأخلاقية لا بل لم يكن مستعداً للتنــازل عن أخلاقه حتى مع العدو المحارب ويذكرنا التاريخ – انه عندما جاء العدو لقتال الإمام اقترح بعض أصحابه أن يسدّوا الماء عن الأعداء فنهاهم الإمام لا بل أمرهم بان يسقوهم ويسقوا خيولهم (٢٣ ، ص١٨٦) ، إن هذا الفعل العظيم ليس لشــيء وإنما هي الأخلاق المبنية على أساس العبادة المطلقة لله ، إن قيمة الفعل الأخلاقي لا تكمن في قيمته المادية بل تكمن في طهارته وكونه خالصاً لله بالكامل . فحــين تصدق الإمام علي وأهل بيته (عليهم السلام) بقليل من الطعام حينما جــاءهم المســكين واليتيم والأسير وكان يمكنهم إعطاء حصة فرد منهم لقضاء حاجته ، لكــنهم – ولكــون الكرم والإيثار صفة ذاتية لهم – رأوا من الواجب الأخلاقي أن يتصدق كل واحد منهم(٨ ، ص١٢٧) ، إن الإخلاص الكامن في هذا العمل يعبر عن مكنون قلوبهم وهو الــذي صعد بالعمل إلى القرب الإلهي كما يشير لذلك قوله تعالى:((إنما نطعمكم لوجــه

الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)) [الإنسان/ ٩] ، وعليه : هل من يرتكب أبشع السيئات الأخلاقية بحق الأمم والشعوب المستضعفة من اجل شعبه وأمته يعد فعله هذا أخلاقياً ؟ حتى وان كان عادلاً ونزيهاً بين أمته وشعبه ؟ إن هذا الفعل ليست فضيلة أخلاقية لأنه يفتقر إلى القداسة المعنوية الرفيعة لان الدافع إليه هو المحافظة على المصلحة الذاتية ، والغاية الأسمى من الأفعال الأخلاقية التي يقدم عليها الإنسان بفطرته – بوعي وبدون وعي – هي من اجل أن تسمو بها الذات الإنسانية وتؤدي إلى مرضاة الله لقوله تعالى ((وأوصينا إليهم فعل الخيرات)) [الأنبياء / ٧٣] . بمعنى أن الله قد أوحى إلى الناس وألقى في قلوبهم فعل الخيرات فالوحي في المنطق القرآني كالجمال والعبادة – وان كان منحصراً في الأنبياء العظام – والذي هو أكمل درجات الوحي – لكنه يوحي به إلى كل إنسان على مستوى الإلهام الفطري والغريزي ، لذا لا يمكن أن يكون هناك معنى للأفعال الأخلاقية إلا في ظل العبادة والإخلاص لله – حتى وان كانت عبادة غير واعية .

وعليه ، فان معيار العبادة – حسب فلسفتنا – هو المعيار الوحيد والمفسر الصحيح للأفعال الأخلاقية للإنسان .

أما بشان التساؤل : هل يمكن أن يعبد الإنسان ربه بصورة غير واعية ؟ يرتبط هذا النوع من الأسئلة بالشعور الواعي واللاواعي ، والإجابة نعم : إن الإنسان بمقدار ما يكون عابداً لله بصورة غير واعية فانه سيكون متبعاً لمجموعة من الأوامر الإلهية بصورة غير واعية أيضاً ، وبمجرد أن يتحول شعوره اللاواعي إلى الشعور الواعي – وهو الهدف الأساسي من بعثة الأنبياء الذين أرسلوا إلى الناس لكي يسوقوهم إلى فطرتهم ويحولوا شعورهم اللاواعي إلى شعور واع – فان جميع أفعاله عندئذ تصبح فضيلة أخلاقية ، ففي مجال معرفة الذات توجد عندنا معرفة لله غير واعية بمعنى إن إلهامات الإنسان الفطرية كلها ناشئة من معرفة الإنسان الفطرية لله أي أن جميع الناس يعرفون الله في مكنوناتهم الفطرية – أي بصورة غير واعية – ولا يتفاوتون في مجال المعرفة الإلهية إلا في مرحلة الشعور الواعي فالإنسان بطبيعته يفعل أشياء كثيرة ولا يفهمها لربما لا

يفهم حتى ذاته التي بين جنبيه في بعض الأحيان ، إذن : يمكن له أن يعبد ربه بصورة غير واعية وعندئذ لا يمكن تبرير الفعل الأخلاقي للإنسان إلا في ظل معيار العبادة الإلهية ، أما بالنسبة للتساؤل : هل العبادة منحصرة على عبادة الإنسان الواعية فقط أم تشمل جميع أنواع الموجودات في العالم ؟ نرى أن العبادة ليست مقصورة على عبادة الإنسان الواعية بل العبادة حقيقة موجودة في جميع الموجودات وليست هناك موجود في العالم لا يعبد الله فكل ذرة من ذرات الوجود تسبح لله وتحمده ، من نبات وحيوان وجماد ، فكما الإنسان يثني على حقيقة المعبود أثناء العبادة فكذا الأمر في الطير مثلاً : عندما يقف مقابل الزهرة فانه يتخذ إزاءها موقف العبادة ، وهذا هو مضمون قوله تعالى ((يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)) [التغابن / ١] ، وهذا يعني أن معيار العبادة هو المفسر الوحيد للأوامر والواجبات المعينة لنا من قبل الله ، فعندما نقوم بتنظيم حياتنا على أساس هذه الواجبات فان حياتنا وموتنا وأكلنا ونومنا يصبح عملاً أخلاقياً مقدساً ، لقوله تعالى : ((إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) [الأنعام / ١٦٢] ، أما بالنسبة للتساؤل الأخير عن مراتب العبادة : يدعي البعض أن العبادة أساساً لا تتلاءم مع الأفعال الأخلاقية ذلك لان الدين يعني أن يعبد الإنسان ربه والعبادة لله لا تكون إلا للخوف من جهنم أو للطمع في الجنة أي أن الأمر في النهاية يرجع إلى المصالح المادية بينما الفعل الأخلاقي فعل مقدس يقدم عليه الإنسان من اجل شرفه وقدسيته ، وهنا نقول : أن للعبادة في المنظور الإسلامي مراتب عديدة : أهمها العبادة التي تتجاوز مستوى الطمع في الجنة أو الخوف من النار بل تؤدى لذات الحق سبحانه لكونه أهلاً بها ويتجسد ذلك في عبادة الأحرار لكونها ناشئة من الحب والشكر لله والخروج الحقيقي من إطار الذات الضيق كما يقول الإمام علي (عليه السلام) : ((الهي ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في ثوابك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك))(٢١،ج٢ ،ص٣٤١) .

يتضح لنا مما تقدم ، إن معيار العبادة – حسب فلسفتنا – في التعامل مع إشكاليات المذاهب الفكرية المتقدمة ، هو المفسر الصحيح للأفعال الأخلاقية والذي لا يبقي مجالاً لإثارة مثل هذه الإشكالات المثارة ذات الارتباط بمسألة المعايير الأخلاقية .

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. احمد عزت راجح ، أصول علم النفس العام ، القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ط٩ ، ١٩٧٣م .

٣. جمال حسين الآلوسي ، أميمه علي خان ، علم نفس الطفولة والمراهقة ، كلية التربية ، جامعة بغداد ، ١٩٨٣م .

٤. حون كونجر ، وآخرون ، سيكولوجية الطفولة والشخصية ، دار النهضة العربية ، القاهرة . ١٩٧٠م .

٥. حامد عبد السلام زهران ، الصحة النفسية والعلاج النفسي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٧ م .

٦. حامد عبد السلام زهران ، التوجيه والإرشاد النفسي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

٧. حسن مكي العاملي ، بداية المعرفة : منهجية حديثة في علم الكلام ، دار المغرب ، بغداد ، ١٩٩١ م .

٨. حسين المرعبي ، محاضرات حول أحكام شهر رمضان والعيد ، ط٢ ، منشورات جامعة الصدر الدينية .

٩. سهام علي الجميلي،علم نفس الطفولة، مطابع دار الحكمة، بغداد،١٩٩٠م .

١٠. عبد الحميد محمد الهاشمي، علم النفس التكويني : أسسه وتطبيقه ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٢ م .

١١.عبد الله الهاشمي ، الأخلاق والآداب الإسلامية ، دار العلوم ، ط٣ ، بيروت ، ٢٠٠٣ م .

١٢.كمال الحيدري،المذهب الذاتي في نظرية المعرفة،دار فراقد، ط١، ٢٠٠٤م.

١٣.كمال الحيدري ، التربية الروحية : بحوث في جهاد النفس ، مؤسسة النبراس ، ط١ ، النجف الأشرف ، ٢٠٠٠ م .

١٤.محمد باقر الحكيم ، الحجة والولاية من منظور الثقلين ، مؤسسة شهيد المحراب للتبليغ الإسلامي ، النجف الأشرف ، ٢٠٠٥ م .

١٥.محمد باقر الصدر ، فلسفتنا ، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للصدر ، ط١ ، إيران ، ٢٠٠٤ م .

١٦.محمد باقر المجلسي ، بحار الأنوار ، دار إحياء التراث العربي ، ج ٤٤ ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

١٧.محمد تقي فلسفي ، الطفل بين الوراثة والتربية ، مطبعة الآداب ، ط٢ ، ج١ ، النجف الأشرف ، ١٩٦٩ م .

١٨.محمد تقي المدرسي ، الأخلاق : عنوان الإيمان ومنطلق التقدم ، دار محبي الحسين (ع) ، ط٣ ، طهران ، ٢٠٠٤ م .

١٩.محمد تقي المدرسي ، مبادئ الحكمة ، دار محبي الحسين (ع) ، ط٢ ، طهران ، ٢٠٠٣ م .

٢٠.محمد محمد صادق الصدر ، محاضرات في الأخلاق ، تقرير علي صادق ، مراجعة حسين طالب ، ٢٠٠٣ م .

٢١.محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، مكتبة وفا ، ط٢، إيران ،٢٠٠٧ م.

٢٢.محمود عبد الرزاق شفشق ، وآخرون ، التربية المعاصرة طبيعتها وأبعادها الأساسية ، دار القلم ، ط٥ ، الكويت ، ١٩٨٩ م .

٢٣.مرتضى مطهري ، فلسفة الأخلاق ، مؤسسة صدر الخلائق ، مكتبة الآداب الشرقية ، النجف الأشرف ، ٢٠٠٤ م .

٢٤.مرتضى مطهري ، الإنسان والإيمان ، المكتبة الإسلامية الكبرى ، مؤسسة البعثة ، طهران ، ١٩٨١ م .